نشأة التصوير الإسلامي

عرف العرب التصوير قبل الإسلام، وعرفوه في الإسلام. أما عن معرفتهم له قبل الإسلام فهذا ما يخبرنا به الأزرق في كتابه "فنوح مكة: إذ يكر أن جدران الكعبة كانت مزينة برسوم، منها رسم يمثل إبراهيم يستقسم بالأزلام، وآخر يمثل مريم وفي حجرها عيسى. ونحن نعرف أن النبي عندما دخل مكة أمر بالتماثيل فحكمت وبالصور فمحيت.

أما عن استمرار الرسم بعد الإسلام، فهذا ما تدل عليه الآثار المصورة التي وصلت إلينا كما يدلنا على معرفتهم له في أوائل أيام الإسلام ذلك الحديث الذي يقول: "دخل أبو هريرة دارا فرأى أعلاها مصوراً بصور، قال: سمعت رسول الله يقول: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة". من الحديث المروري عن ابن عباس السابق ذكره.

ومما يؤسف له حقاً عدم وصول أمثلة من هذا النشاط المبكر في العصر الإسلامي أو ما قبله لنقف منه على طبيعة التصوير في بلاد الحجاز مهبط الوحي، وهل كان ذا طابع خاص مستقل أم كان متأثراً بما جاوره من تصوير في إيران والشام، يحذو حذوهما ويسير على نهجهما؛ ولو تيسر لنا ذلك لاستطعنا أن نعرف إلى أي حد كان اعتماد العرب على أنفسهم في تنشئة التصوير الإسلامي، وإلى أي مدى كان الاقتباس من التصوير الساساني والبيزنطي.

ومع ذلك فإن أقدم ما وصل إلينا من رسوم إسلامية مبكرة، يدل على أن العرب اعتمدوا اعتماداً كلياً على الحضارات السابقة، وعلى الفنانين من أهل البلاد المفتوحة، فما وصل إلينا من بلد ما ليس إلا نموذجاً واستمراراً لما كان سائداً فيه قبل الفتح الإسلامي، ولذا نشاهد إنتاج العراق وإيران شديد الصلة بالتصوير الساساني؛ وما هو بالشام مثال للتصوير الهلينستي والبيزنطي، وما عثر عليه في مصر وثيق الارتباط بالتصوير القبطي وهكذا. فلو كان العرب أسلوب خاص بهم وتقاليد فنية مغايرة لظهر أثرها في هذه الرسوم المبكرة، لاستطاعوا أن يلقونها للفنانين من أهل هذه البلاد التي خضعت لسلطانهم.

وأهم الفنون التي كانت موجودة في تلك الرقعة الشاسعة التي تتكون منها الإمبراطورية الإسلامية هو الفن الساساني والبيزنطي، وعن هذين الفنين أخذ العرب والمسلمون بعض الأساليب واستعاروا بعض العناصر ومزجوا بينها وأخضعوها لتوجيهات جديدة ومثل لم تكن معروفة من قبل، ومن ثم نشأ الفن الإسلامي، وهو وإن كان في أصوله مزيجاً من الفن الساساني والبيزنطي إلا أن له طابعه الخاص به.

ولم يكن الاعتماد على الفنانين من أهل هذه البلاد، سواء من اعتنق منهم الإسلام أو بقى على دينه، هو العامل الوحيد الذي ساعد على نشأة الفن الإسلامي، بل هناك عوامل أخرى لها قيمتها في هذا الشأن.

ومن أهم العوامل النقل والاقتباس عن آثار الفنون السابقة وتقليد ما وصل إليهم من إنتاجها ويهمنا في هذا الصدد الرسوم الجدارية والمخطوطات.

شاهد العرب كثيراً من الآثار المصورة، ووقع تحت أيديهم بعض المخطوطات التي زينت صفحاتها بالصور والرسوم وقد حفظت لنا المصادر العربية بعض ذلك فها هو البحتري يصف لنا الرسوم التي كانت تزين إيوان كسرى بالمدائن فقال:

فـإذا مـا رأيـت صـورة انطـا كيـة ارتعـت بـين روم وفـرس
والمنايـا موائـل وأنوشـروان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أَفر يختال في صبيغة ورس
وعـراك الرجـال بـين يديـه في خفوت منهم وأغماص جرس
مـن مشـيح يهـوى بعامـل رمـح ومليـح مـن السـنان بتـرس
تصف العين أنهم جد أحياء لهم بيهم إشارة خرس
يغتلـي فـيهم ارتيـابي حتـى تتقـراهم يـداي بلمـس

وذكر المسعودي أنه رأى مخطوطة مصورة في حيازة أسرة فارسية نبيلة بمدينة اصطخر، وتمثل صورها الأكاسرة عند وفاتهم، وقد ارتدى كل منهم الثياب الملكية ووضع التاج فوق رأسه. وقد رأى أبو إسحاق الفارسي المشهور بالاصطخرى مخطوطة مماثلة في إحدى قلاع مدينة شيز شمالي فارس.

هذا وقد وصلت إلينا رسوم ترجع إلى العصر الساساني، منها رسم لمعركة حربية في أحد منازل مدينة دورا، ولعله يمثل موقعة الرهابين هرمز وفالريان، ومنها كذلك رسوم أخرى في دمغان بأفغانستان.

ومما يدخل تحت نطاق التصوير الساساني التصوير المانوي. فقد دعا ماني مؤسس المذهب الديني المنسوب إليه إلى تزيين الكتب بالصور

وتوضيحها بالرسوم كوسيلة من وسائل نشر التعاليم الدينية.

وكان ماني نفسه من أشهر المصورين، شاد بذكره المؤرخون، وتغنى بمهارته الشعراء وسار على منواله تلاميذه من بعده، والظاهر أنهم كانوا على درجة كبيرة من التقدم الفني والإتقان، مكنتهم من استخدام الذهب والفضة في الرسوم. إذ يروي أن الذهب والفضة سالا من كتبهم عندما أحرقت في بغداد عام ٩٢٣م. وتذكر بعض المصادر أن كاهناً مانوياً عرض على الخليفة المأمون صورة أنوشروان.

هذا عن الفن الساساني. أما عن الفن البيزنطي فما لا شك فيه أن العرب والمسلمين شاهدوا كثيراً من التصوير البيزنطي سواء أكان ذلك رسوماً جدارية ولوحات في كنائسهم أم مخطوطات مصورة.

ونحن نعرف أن الخلفاء أرسلوا البعوث إلى القسطنطينية والولايات البيزنطية لجمع المخطوطات الإغريقية لترجمتها، واشتغل بالترجمة مسلمون ومسيحيون على السواء وممن قام بترجمة الكتب في عهد المأمون: الحجاج بن مطر وسلم صاحب بينت الحكمة وابن البطريق وحنين ابن اسحق، واشتهر بعد عصر المأمون أبو بشر متى بن يوسف وثابت بن قرة وأبو عثمان الدمشقي.

وكان بعض هذه المخطوطات المشتملة على الصور والرسوم مصدراً من المصادر التي اعتمد عليها العرب والمسلمون.

وهذا ما تدلنا عليه الصور الإسلامية الأولى؛ إذ يتضح فيها التأثر

بالفن الساساني والبيزنطي سواء أكانت رسوماً جدارية أم صوراً في مخطوطات، ومما يؤسف له أن أقدم المخطوطات العربية التي وصلت إلينا يرجع إلى أواخر القرن ٦هـ-١٢م بالرغم من الإشارات التي تصادفنا في المراجع العربية عن وجود مخطوطات عربية مصورة في القرن ٢هـ-٨م فنحن نعرف مثلاً أن الأفشين قائد جند الخليفة المعتصم العباسي كانت عنده مخطوطات مصورة وكانت إحدى أسباب محاكمته. كما نعرف من هذه المحاكمة أن محمد بن عبد الملك الزيات أحد قضاته كانت عنده كتب مصورة منها كتاب كليلة ودمنة، وكتاب مزدك. بل نعلم من مقدمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة أنه كان مزوقاً بالصور والرسوم.

فلو وصلت إلينا هذه المخطوطات المبكرة لاستطعنا أن نحدد مدى العلاقة التي كانت قائمة بين التصوير الإسلامي وبين التصوير الساساني والبيزنطي في ذلك الوقت المبكر، وإلى أي حد اعتمد المسلمون على هذين الفنين في تنشئة التصوير الإسلامي.

غير أن هذا النقص تسده الرسوم الجدارية الإسلامية؛ فقد وصلت إلينا رسوم من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ونجدها في قصور خلفاء الأمويين ببادية الشام وأخرى من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وقد عثر عليها في قصور سامرا وفي حمام فاطمي بجهة أبي السعود.

ومن الملاحظ أن أسلوب الأولى منها يختلف اختلافاً بيناً عن أسلوب الأخرى؛ إذ بينما تتأثر رسوم قصير عمره بالفن الهلينستي نجد الأخرى تسير على نهج الفن الساساني.

وإذا كنا نرى هذه الفروق واضحة جلية في الإنتاج المبكر، إلا أنها لا تلبث أن تختفي بعد وقت، وتخضع الرسوم والصور في مختلف أنحاء العالم الإسلامي لتقاليد فنية واحدة، ويتمثل لنا هذا بوضوح في صور القرن السادس والسابع الهجري (الثاني عشر والثالث عشر الميلادي) ومن المعروف أن خضوع المراكز الفنية لأسلوب واحد واتباعها – على ما بينها من بعد – لتقاليد فنية واحدة راجع إلى خضوع العالم الإسلامي لحكومة واحدة، وإلى العادة التي جرى عليها الخلفاء من استدعاء الفنانين للعمل في مقر الخلافة وإلى سهولة الانتقال من مكان إلى آخر.

وكان هذا التشابه كبيراً جداً لدرجة يصعب معها التمييز بين إنتاج مركز فني وآخر، أو نسبة مخطوطات بعينها إلى مركز بالذات. ولا يستمر هذا طويلاً؛ إذ ما يكاد يحل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى تتضح الفروق بين البلاد ويصبح من السهل التفرقة بين إنتاج البلدان بعضها وبعض، بفضل اكتساب إنتاج كل بلد صفات مختلفة ومميزات مغايرة عن البلد الآخر، وهذا ما نعني به بالمدارس التصويرية.

ومدارس التصوير في الفن الإسلامي – كما ذكرنا – أربع هي: المدرسة العربية، والإيرانية، والهندية المغولية، والتركية العثمانية.